﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تهويـنُ شـأن المـشـركـين لـجـدالـهـم في آيـات الله بغير سلطان مبين

تأتي هذه الآيةُ في سياق ما انتهجته السّورة مِنَ الرَّدِّ على المشركين ومجادلاتهم في آيات الله مع الرَّسول ﷺ، وعرْضُ المجادلة في آيات الله والرَّدُّ عليها هو رأس سورة غافر[1] ومقصودها الأعظم، وكذلك أيضًا دحْضُ ما أوردوهُ مِن شُبهات حول رسالته ﷺ، بدءًا من قولهِ تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، ومرورًا بعددٍ مِن الآيات التي اهتمَّت بالسّياق نفسه، وصولًا إلى هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ التي هي بمنزلة مصداقٍ ومثلٍ واضح صريح لمجادلة المشركين له ﷺ بغير سلطان ولا حجَّة، ولكن تكبُّرًا وعنادًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: أصل (جدل) يدلُّ على استحكام الشَّيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[3]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمت فتلَهُ، فكأنَّ المتجادلَين يفتل كلُّ واحد الآخر عن رأيه ... وقيل: الأصل في الجِدال: الصِّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة، وهي الأرض الصُّلبة[4]، ومعنى:

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 198.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 172.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(4) الراغب، المفردات: (جدل).

﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: يناصبون بالعداوة أهل هذا الدّين لنقلهم عنه إلى ما هم عليه مِنَ الباطل[1].

2) ﴿كِبۡرٌ﴾: أصل (كبر) يدلُّ على خلاف الصِّغر، يقال: هو كبير وكُبارٌ، وكُبّارٌ... والكِبْرُ: العظمة، وكذلك الكِبرياء[2]، والكِبْر اسم من التَّكَبُّرِ[3]، وهو الحالةُ التي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبرَ مِن غيرِه، وأعظمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على الله بالامتناع من قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادةِ[4].

3) ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾: أصل (بلغ) يدلُّ على الوصول إلى الشَّيء، تقول: بلغتُ المكان؛ إذا وصلت إليه، وقد تُسمّى المشارفة بلوغًا بحقِّ المقاربة[5]، والبُلوغ والبَلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدَّرة[6]، تقول: بلغت المكان بلوغًا: وصلت إليه، وكذلك إذا شارفت عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2]، أي: قاربنه، وبلغ الغلام: أدرك البلوغ[7].

ومعنى ﴿كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، أي: "تكبُّرٌ وتعاظمٌ يمنعهم من أن يتَّبعوك، وأن ينقادوا إليك"[8].

4) ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾: أصل (عوذ) يدلُّ على الالتجاء إلى الشَّيء، ثم يحمل عليه كلُّ شيءٍ لصق بشيءٍ أو لازمه[9]، تقول: عُذْتُ بفلانٍ، واستَعَذْتُ به، أي: لجأت إليه، وهو عياذي، أي: ملجئي[10]، وقولك: أعوذ بالله - جلَّ ثناؤه - أي: ألجأ إليه عَوذًا أو عياذًا، وقولك: معاذ الله، معناه: أعوذ بالله، وكذا أستعيذ بالله[11]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، أي: التجئ إليه وحده، واستجِرْ به، فإنَّه كافيك.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 92.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (كبر).
(4) الراغب، المفردات: (كبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(6) الراغب، المفردات: (بلغ).
(7) الجوهري، الصحاح: (بلغ).
(8) ابن جزيّ، التسهيل: 2/ 233.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوذ).
(10) الجوهري، الصحاح: (عوذ).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوذ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كـلُّ مَـن جـادل الحقَّ مغلوبٌ، وكـلُّ مَـن تكبَّر عليه؛ فهو في نهايته ذليلٌ مسلوب

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ يخبر الله تعالى رسوله محمَّدًا ﷺ بأنَّ الذين يخاصمونه، ويجادلونه في آيات الله إرادة أن يبطلوها بباطلهم، وبغير بيِّنة من أمرهم ولا حجَّة تدعمهم؛ ما يحملهم على هذا الجدل إلّا كِبرٌ في صدورهم يمنعهم عن اتِّباعك وعن قَبول الحقِّ الَّذي جئتهم به، وأنَّهم يريدون الاستعلاء على الحقِّ بما معهم مِنَ الباطل، فهذا قصْدُهم ومرادهم، ولكنَّ هذا لا يتمُّ لهم، وليسوا ببالغيه، فإنَّ الله قد أذلَّهم، وحمى رسوله ﷺ من شرِّ هؤلاء المجادلين المستكبرين؛ إذ أمره بأن يستعيذ منهم، فيقيه مِن أذاهم وشرِّهم، ويكلؤه، ويحفظه منهم ومن أمثالهم، فهذا نصٌّ صريح، وبشارة، بأنَّ كلَّ من جادل الحقَّ مغلوب، وكلَّ من تكبَّر عليه؛ فهو في نهايته ذليل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقها:

أدَّى النَّبيُّ ﷺ أمانةَ ربِّه أكمل أداء

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقصودٌ به الإخبار بأنَّ إعراض الكفّار عن الإيمان بالله ورسوله جدالهم في آيات الله لم يكن أبدًا مستندًا على حجَّة قويَّة ولا قناعة عقليَّة، وأنَّه لا سبب لهذا كلِّه سوى الكبر والتَّعاظم بلا داعٍ، وعدم إدراك منهم لعاقبة كفرهم، وفي هذا إيناس للرَّسول ﷺ وإزالة لوحشة نفسه من عدم إيمانهم، بإعلامه أنَّهم لم يعرضوا عن الإيمان، ولم يجادلوا في آيات الله لسبب من جهته هو، ولكن لمرض في قلوبهم وكبر في

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 740، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 83.

نفوسِهم، وهذا مطابق من تلك الجهة؛ لما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33].

فائدةُ تتابع المؤكِّدات في صدر الآية:

التَّأكيدُ في الآية للاهتمام بالخبر

تأكيدُ هذه الجملة الخبريَّة بـ ﴿إِنَّ﴾، وباسميَّة الجملة، مقصود به الاهتمام بالخبر من جهة تأكيده، وليس لمحو شكٍّ شاكٍّ، أو إنكار منكر، فالمخاطَب بهذه الجملة هو رسول الله ﷺ بقرينة أمره بالاستعاذة في نفس الآية: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، ومن جملة هذا الاهتمام شرح صدر الرَّسول ﷺ؛ ليعلم الرَّسول ﷺ دخيلتهم، فلا يحسب أنَّهم يكذِّبونه تنقُّصًا له، ولا تجويزًا للكذب عليه[1].

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

من أوصاف المبطلين كثرة الجدال والاستمرار عليه

عبَّر سبحانه عن أهل الجدال في آيات الله بالاسم الموصول قائلًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون التَّعبير بالاسم الصَّريح: (المجادلين في آيات الله)؛ قصدًا لذمِّهم بما تضمَّنته جملة الصِّلة من كونهم يجادلون في آياته سبحانه مع عزمٍ على الاستمرار فيه، وتجديد النَّشاط في هذا الجدال حينًا بعد حين، وهذا سرُّ إيثار التَّعبير بصيغة المضارع في جملة صلة الموصول، وكأنَّهم كلَّما جادلوا؛ ازدادوا قوَّة نحو الازدياد في هذا الجدال؛ أملًا في تحقيق غاياتهم من ورائه، وهي دحض الحقِّ وإعلاء الباطل؛ قصدَ الغلبة والاستعلاء على الرَّسول ﷺ ودعوته، وهذا سرُّ التَّعبير بالجدال الذي يعني هنا المنازعة لأجل التَّغلُّب على الآخر، ولو بالباطل، وهذا ما قاله سبحانه عنهم في محل آخر: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: 56].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 172.

فائدةُ الظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

جادل الكافرون في آيات الله بجميع أصناف الجدال

الظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالَّةٌ على استغراق جميع أنواع الجدال، حيث تعلَّقت ﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة بالجدال، وجُعِل مجرور الحرف نفس الآيات دون تعيين مضاف نحو صِدقها أو وقوعها أو صنفها، وهذا يدلُّ على استغراق الظُّرفيَّة وشمولها لجميع أصناف الجدال، فكان بذلك قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامعًا للجدل بأنواعه[1].

نكتةُ إضافةِ الآيات إلى لفظ الجلالةِ دون ضميره:

آيات العظيم سبحانه جديرة بالتَّصديق والإذعان

أُظهِرَ اسمُ الجلالة في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وأضيفت الآيات إليه عدولًا عن قوله: (في آياتنا) بإضافتها إلى ضميره سبحانه؛ لتعظيم أمر الآيات بذلك التَّصريح، ولتفظيع أمر جدال الكفار فيها وكفرِهم بها، وتهوين شأنهم بسبب فعلهم هذا؛ لأنَّ ذِكرَ اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم، وللتَّصريح بزيادة التَّنويه بالقرآن وآياته[2].

دلالةُ القيد ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾:

ليس للمجادلين في آياتِ اللهِ سلطان، إنَّما إفكٌ وبهتانٌ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ للمصاحبة، والمعنى: مصاحب لهم غير سلطان، أي: غير حجَّة ولا دليل، أي: إنَّهم يجادلون مجادلةَ عنادٍ وغصبٍ[3]، "وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم، وإلّا فإنَّ المجادلة في آيات الله لا تكون إلّا بغير سلطان؛ لأنَّ آياتِ الله لا تكون مخالفةً للواقع، فهذا القيد نظير القيد في قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: 50]، وكذلك وصف ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ بجملة: ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لزيادة تفظيع مجادلتهم، بأنَّها عريَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 82.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 7، 17/ 92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

عن حجَّة لديهم، فهُم يجادلون بما ليس لهم به علم"[1]، وأضاف أبو السُّعود فائدة أشمل لإيراد هذا القيد، وهي "الإيذانُ بأنَّ التَّكلُّم في أمْرِ الدّينِ لا بُدَّ مِن استنادِه إلى سلطان مبينٍ البتَّةَ، وهذا عامٌّ لكلِّ مجادلٍ مُبطلٍ، وإنْ نزلَ في مُشركي مكَّة"[2].

نكتةُ تنكير ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾:

النَّكتةُ في تنكير ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: هو تفخيمُ أمر السُّلطان وتعظيمه؛ لكونه حجَّةً فيها مِنَ القوَّة ما فيها، فإذا أخبر عنهم أنَّهم يجادلون بغير سلطان؛ فقد سلبهم هذه القوَّة في الحجَّة، وبقي لهم أنَّهم ليسوا على شيءٍ.

لا يملكُ المجادلون حقًّا يجادلون به، قليلًا أو كثيرًا

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾:

جملة: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهذا هو سرُّ الفصل بين الجملتَين، وهو ما بينهما من (كمال الاتصال)، و﴿إِن﴾ الكائنةُ في بداية الجملة نافية، والمعنى: ما في قلوبِهم إلّا تكبُّرٌ عن الحقِّ، وتعظُّمٌ عن التَّفكُّرِ والتَّعلُّم، أو: إلّا إرادةُ الرّياسةِ والتَّقدُّم على الإطلاقِ، أو: إلّا إرادةُ أن تكونَ النُّبوَّةُ لهم دونَك حسدًا وبغيًا، حسبما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزخرف: 31] ونحوه[3].

حال بين المجادلين والإيمان كِبْرُهُم وجحودهم

بلاغة القصر ونوعه وغرضه:

القصر في قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ قصر موصوف على صفة على سبيل الادِّعاء؛ لكون صدورِهم منطويةً على أمراضٍ كثيرةٍ غير الكِبر، وكذلك على أغراض وطموحات زائفةٍ، لكنَّها جميعًا دون الكِبر الذي هو أبرز ما فيها، فـ" لغلبته كأنَّ ما سواه لم

القصر ادِّعائيٌّ وغرضه إظهار أنَّ الكِبر أبرزُ ما في قلوبهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 281.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 281.

يوجد"[1]، ومن فوائد القصر وأغراضه هنا نفيُ "أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخرَ غير الكِبر على وجه مؤكَّد، فإنَّ القصرَ تأكيدٌ على تأكيد، لما يتضمَّنه من إثبات الشَّيء بوجه مخصوص مؤكَّد، ومن نفي ما عداه، فتضمَّن جملتَين"[2].

دلالةُ الظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله سبحانه: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ على استغراق الكِبر كاملَ صدورِهم، فهو مظروف فيها، وهي له محلٌّ وظرف، وكأنَّ قلوبَهم ليس فيها مكان إلّا لكبرهم الذي ملأها، وحشاها، وفاض منها حتّى شغل الصُّدور الَّتي هي مساكنها[3].

ملأ الكِبرُ قلوبَهم فصدَّهم عن سبيل الله تعالى

نكتةُ تقديم شِبه الجملة على المسندِ إليه:

في قوله سبحانه: ﴿فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قدَّم الجار والمجرور، وهو الخبر على المبتدأ، وهو ﴿كِبْرٌ﴾ لمقتضى تركيب جملة القصر الادِّعائي المراد منه ادِّعاءُ قصر الموصوف على الصِّفة، ولولا أنَّ الجملةَ جزءٌ مِن تركيب أكبر، وهي جملة القصر المؤكَّد بالنَّفي والاستثناء لتحقيق الغرض المذكور؛ لكان هذا التَّقديم للخبر والتَّأخير للمبتدأ وحده كافيًا في إفادة القصر والاختصاص، والغرضُ من ذلك كلِّه الإشعارُ بأنَّه لا مكان في صدور المجادلين في آيات الله لغير الكِبر.

لا مكان في صدور المجادلين في آيات الله لغير الكِبر

بلاغةُ المجاز في إطلاق الصُّدور على القلوب:

في التَّعبير بالصُّدور في قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ – مرادًا بها القلوب – مجازٌ مرسلٌ علاقته "المجاورة والملابسة"[4]، أو قل: لعلاقة المحلِّيَّة وذلك لكون القلب محلُّه الصَّدرُ، فأطلق المحلَّ،

إطلاقُ الصُّدور على القلوب هو على المجاز المرسل أو الكناية

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 173.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 92.
(4) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 377.

وأراد الحالَّ فيه، وهو القلبُ إذ هو محلُّ الضَّمائر والمعتقدات وسائر الانفعالات، ولا شكَّ أنَّ الكِبر واحدٌ من هذه الانفعلات النَّفسانيَّة "والعرب يطلقون القلب على العقل؛ لأنَّ القلب هو الَّذي يحسُّ الإنسان بحركته عند الانفعالات النَّفسيَّة من الفرح وضدِّه ومن الاهتمام بالشَّيء، والكِبر من الانفعالات النَّفسيَّة"[1]، ولك أن تقول: الصُّدور هنا كنايةٌ عن القلوب؛ لكون الصُّدور هي موضعُ القلوب[2].

نكتةُ تنكير ﴿كِبْرٌ﴾:

التَّـنـكـيرُ هنا مفيدٌ للتَّعظيم والشُّمول لشتَّى أنواع الكِبر

النُّكتةُ في تنكير كلمة ﴿كِبْرٌ﴾ تعظيمه؛ فهو كِبرٌ عظيم لم يُترك في صدورهم مكانًا لشريكٍ يشاركه فيها، أو حتّى يجاوره داخل هذه الصُّدور الَّتي اتَّسعت للكِبر بأنواعِه الكثيرة ومظاهره المتعدِّدة، فكلمةُ الكِبر هنا "متَّسعة جدًّا؛ لأنَّها تعني كلَّ موانعهم"[3]، أي: كلُّ ما منعهم عن الإيمان، وصرفهم عنه من الأسباب الزّائفة.

معنى ﴿مَّا﴾ وبيان اسمها وخبرها:

لـــن يـبـلـغَ الـكـافـرون مقتضى كِبرهم وجحودهم

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ تحتملُ أن تكون التَّميميَّة النّافية مهملة العمل، الضَّمير ﴿هُم﴾ مبتدأ، والخبر قوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، وتحتملُ أن تكون ﴿مَّا﴾ الحجازية العاملة عمل ليس، والضَّمير ﴿هُم﴾ اسمها، وقوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ خبرها، والباء في ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ زائدة، والجملة: في محل رفع نعت لـ ﴿كِبْرٌ﴾، وقيل: معترضة[4]، والمعنى: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبر، وهو ما أرادوه من الرّياسة أو النُّبوَّة[5]، أي: إنَّ الضَّمير في ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ راجعٌ إلى ذلك المقتضى من الكِبر، وليس إلى الكِبر؛ إذ لا معنى لعودِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 173.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 337.
(3) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 202.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 174.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 173، والخطيب وآخران، التفصيل: 24/ 199.

على الكِبر، وقد أثبتَهُ لهم إثباتًا مؤكِّدًا بطريق القصر، كما مضى، وجوَّز ابن عاشور عودَهُ إلى ﴿كِبْرٌ﴾ "على وجه المجاز بعلاقة السَّببيَّة أو المسبَّبية، والداعي إلى هذا المجاز طلبُ الإيجازِ؛ لأنَّ تعليق نفي البلوغِ باسم ذات الكِبر يشملُ جميع الأحوال الَّتي يثيرها الكِبر"[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

حفْظُ اللهِ تعالى لـديـنـه دائـمٌ مستمرٌّ

أوثِرَ في التَّركيب التَّعبير بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾؛ لإفادتها ثباتَ مدلولها ودوامَه، فالمعنى: أنَّهم محرومون من بلوغه حرمانًا مستمرًّا[2]، وأوثِرَ النَّفي بـ﴿مَّا﴾ ودخوله على الاسم لإفادة العموم والمبالغة[3] في نفي بلوغ الكافرين لمقتضى كِبرهم وجدالهم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ مادَّة وصيغة:

لـن يـبـلـغَ المـغـرضـون غـرضـهـم في النَّيل من الدّين ولن يقاربوه

أوثِرَ التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ دونَ التَّعبير بالفعل؛ لما يفيده التَّعبير بالاسم من دلالةٍ على الثُّبوت مع الدَّوام، بخلاف التَّعبير بالفعل الذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث، وأمّا عن سرِّ اختيار مادة البلوغ في نفي الوصول إلى الدّين والنَّيل منه؛ فلأجل ما تفيده هذه المادَّة من معنى مشارفة الوصول بجانب دلالتها على الوصول، وعليه يكون المعنى: ما هم بواصلين إليه ولا مشارفين على ذلك الوصول.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾:

في قـولـه (ببالغيه) مجازٌ مرسل علاقتُهُ السَّببيَّة

حقيقةُ البلوغِ: الوصول، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: 7]، ويُطلق على نوال الشَّيء وتحصيله مجازًا مرسلًا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [سبأ: 45]، وهو هنا محمول على المعنى المجازيِّ – لا محالة – أي: ما هم ببالغي الكِبر[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 174.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 424.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 174.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ واقعةٌ في جواب شرط مقدَّرٍ هي الدالَّة عليه، والتَّقدير: الأمر على ما علمت يا رسول الله، فإذا وقع منهم جدال ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، وهو سبحانه كافيك: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: 36]، أو أنَّ الفاء للتَّفريع، أي: ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، وهذا التَّرتيب يُستخرج من الكلام المرتَّب عليه معنى لا يدلُّ عليه الكلام دلالةً ظاهرة، وهو أنَّ هؤلاء المتكبِّرين قد أضمروا إيذاءَهُ ﷺ[1]، ولذا أُمِرَ بالاستعاذة بالله.

الفاءُ للتَّفريع، أو هي الواقعةُ في جـواب شرط مـقـدَّر، ولـكـلٍّ تأثيره في توجيه المعنى

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ ونكتة حذف متعلِّقه:

الأمرُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ هو أمرٌ بالالتجاء إلى الله تعالى والاستعانة به؛ إذا ما وقع من المغرضين جدالٌ في آيات الله أو حسد له ﷺ وكيدٌ، والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِۖ﴾ للاستعانة، والنُّكتة في حذف المتعلِّق هي إفادة العموم، أي: استعذ بالله مِن كلِّ شيء فيه إيذاء لك يا رسول الله، أو محاولة للطَّعن في دين الله.

محاولات النَّيل من الرَّسول ﷺ فعلٌ من همزات الشَّياطين

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ عن جملة: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ التي سبقتها؛ لأنَّها تعليل للأمر بالدَّوام على الاستعاذة، أي: لأنَّه المطَّلع على أقوالهم وأعمالهم وأنت لا تحيط علمًا بتصاريف مكرهم وكيدهم[2]، فبين الجملتين على ذلك شبهُ كمال اتِّصال.

الالتجاءُ إلى من بيده أمر الأرض والسَّماء

بلاغةُ القصرِ ونوعه وغرضه في فاصلة الآية:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ توكيدٌ من عدَّة أوجه هي: (إنَّ) التَّوكيديَّة في مستهلِّ الجملة التَّعليليَّة، ثم اسميَّة الجملة،

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 205.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 175.

ثم الإتيان بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ثم ختم الجملة بذكر الاسمين الجليلين ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ مُعرَّفين بأداة التَّعريف (أل) الدّالَّة على الكمال، فهذه كلُّها مؤكِّدات متتابعة جاءت؛ لإفادة غرضين هما الاهتمام بالخبر؛ ليتأكَّد لكلِّ سامع أنَّ الملجأ دائمًا عند وقوع الملمّات هو الله تعالى وحده، والآخر أنَّ الجملة أفادَتِ القصر، وهو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا؛ لأنَّه سبحانه له غير هاتين الصِّفتين كلُّ صفات الكمال الَّتي تليق بذاته المقدَّسة، وهذا الحصرُ "مراعًى فيه التَّعريض بالمتحدَّث عنهم، وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، والمعنى: أنَّه هو القادر على إبطال ما يصنعونه، لا أنت، فكيف يتمُّ لهم ما أضمروه لك؟"[1].

القصرُ في الآيةِ هو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا، وغرضه التَّأكيد والتَّعريض

نكتةُ إضمارِ اسم الجلالة بعد إظهارِه:

التَّعبيرُ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ببناء الجملةِ على الضَّمير العائد إلى اسم الجلالة المذكور قبلًا يدلُّ على وثاقة الارتباط بين الجملتَين والدَّمج بينهما بما يقوّي معنى كونهِ سبحانه حارسًا حاميًا لرسوله ﷺ من كيد الكائدين ومكرهم؛ لأنَّ هذه الجملة تعليل للَّتي قبلها.

ارتباطُ الجملتَين يؤكِّد المعنى ويقوّيه

نكتةُ تذييل الآية الكريمة بهذَين الاسمَين الجليلَين:

تذييلُ الآية الكريمة بهذين الاسمين الجليلين: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ظاهر المناسبة لمضمون الآية الكريمة؛ لكونِها في شأن المجادلين في آيات الله بغير حجَّة ولا سلطان، وإنَّما لسيطرة الكِبر على قلوبِهم ونفوسِهم، وهذا من شأنه أن يظهر أحيانًا في أفعالهم، فيناسبُه اسم ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾، وأحيانًا تخفيه نفوسُهم، وتكنُّه صدورُهم تبعًا للمواقف والظُّروف والغايات، فيناسبه اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، ومن نكات

مقتضى التَّذييل بذكر الاسمين الجليلين التَّهديد والوعيد لهؤلاء المجادلين المتكبِّرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 175.

هذا التَّذييل كذلك ما فيه من التَّهديد والوعيد للمتحدَّث عنهم في الآية، وهم الذين يجادلون في آيات الله مدفوعين إلى ذلك بالكِبر الذي ملأ صدورَهُم، فمآل كونهِ سبحانه هو السَّميع لكلِّ ما يُسمَع؛ وإن أخفتْهُ الصُّدور، البصيرُ لكلِّ ما يُرى؛ وإن دقَّ كالنَّمل في جوف الصُّخور، مآله أنَّه سبحانه مجازٍ هؤلاء المجادلين المتكبِّرين على الله ورسوله وكلِّ من سلك طريقَهم بما يستحقّون.

نكتةُ التَّقديم بينهما:

سبحانَ الَّذي يعلم السِّرَّ وأخفى

في تقديم اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ هنا علَّة واضحة، وهي أنَّ الجدال في آيات الله تكبُّرًا وعنادًا يعتمد في الأساس على التَّدابير الخفيَّة مِن قبل المجادلين المتكبِّرين، وما يظهر عليهم مِن أفعال هو بعض ما يدبِّرونه، فالعادة أنَّ التَّدبير الماكر في الخفاء أوسع كثيرًا ممّا يظهر من الأفعال، ولذا ناسب أن يُقدَّم اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على سماع ما تكتَّموا إظهاره ممّا دار في مجالسهم الخاصَّة، وأسرّوا به إلى خاصَّتهم، أمّا ما يظهر من أفعالِهم؛ فهو مرئيٌّ مُشاهدٌ ورتبته تالية بعديَّة، فناسب تأخير اسم ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾.

نكتةُ المبالغة في صيغتيهما:

صيغةُ المبالغةِ تدلُّ على التَّناهي في معنى الصِّفة بما يليق بكمالهِ سبحانه

في قوله سبحانه: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ورد الاسمان الجليلان على طريقة المبالغةِ، فـ (فعيل) صيغةُ مبالغةٍ، والهدفُ مِن ورود الاسمين الجليلين وكذا سائر أسمائِهِ سبحانه وصفاته على طريقة المبالغة هو الدَّلالة على التَّناهي في معنى الصِّفة بما يليقُ بجلاله سبحانه وكماله، وأيضًا لكثرة متعلَّقاتهما ومفعولاتهما، وهذا هو الشَّأن في توجيه معنى المبالغة في صفات الله تعالى[1].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 507.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الجدال والحِجاج:

الجِدال: المفاوضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصلُهُ من: جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ فتلَهُ، فكأنَّ المتجادلَين يفتل كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه[1].

الجدالُ على سبيل المغالبة، والحجَّة سبب في ذلك

ويُعرَّف الجدَل بأنَّه: دفْعُ المرءِ خصمَهُ عن إفسادِ قولِه: بحجَّة، أو شبهة، أو يُقصَد به تصحيحُ كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة[2].

والمطلوب بالجدال: الرُّجوع عن المذهب، وهو مفهوم قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وذلك أنَّ دأب الأنبياءِ ﷺ كان ردع القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله ببذل القوَّة والاجتهاد في إيراد الأدلَّة والحجج، وقد يراد بالجدال مطلق المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109]، وقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾[3].

والحجاج هو مِن إقامة الحجَّة على الآخر، والحُجَّة: الدَّلالة المبيِّنة للمحجَّة، أي: المقصد المستقيم الَّذي يقتضي صحَّة أحد النَّقيضين، قال تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: 149][4]، والمطلوب بالحجاج هو ظهور الحجَّة[5]، وبهذا يفترق كلٌّ مِنَ الجدال والحجاج من حيثُ المفهوم، فمفهوم الجدال أوسع؛ لأنَّه يعني المنازعة والتَّغلب، فتدخل الحجَّة فيه كسبب من أسباب التَّغلُّب، فيكون الجدال بذلك

(1) الراغب، المفردات: (جدل).
(2) الجرجاني، التعريفات، ص: 74.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 158.
(4) الراغب، المفردات: (حج).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 158.

أعمَّ من الحجَّة، كما أنَّهما يختلفان في المقصد، فمقصدُ الجدال الرُّجوع عن المذهب، ومقصدُ الحِجاج ظهور الحجَّة، ولأجل ما كان في قصد المجادلين في آياتِ الله من العمل على صدِّ الرَّسول ﷺ والمؤمنين عن إيمانهم، ولأجل أنَّه ليست لديهم حجَّة في مجادلتهم، كان التَّعبير بالجدال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ هو الأنسب للمقام.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»